

(١)
قبل الرسالة

جاء في الروض الأنف : « وفى الحديث أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم زار قبر أمه بالأيواء فبكى وأبكى ».

قبل الرسالة

قبل الرسالة المحمدية ، كانت مكة من اشهر المدن فى شبه الجزيرة العربية ، لان بها الكعبة بيت الله الحرام ، حيث يحج اليها العرب من كل مكان ، مما اكسب اهلها احترام باقى القبائل ولكن الكعبة كانت مليئة بالاولثان الذين يتقربون بها إلى الله زلفى .

لقد نسى الناس رحيق السماء . . نسوا عبادة التوحيد الخالص الذى نادى بها ابراهيم الخليل ، وابنه اسماعيل عندما أقاما القواعد من البيت .

وكان أهل مكة مشغولون بتجارتهن إلى الشام وإلى اليمن مايصدرونه ومايستوردونه من كليهما . . ثم كانوا يسمرون اما بالحديث عما يجرى من احداث فى مكة ، أو سماع الشعر ، أو ما يتناهى اليهم مما يجرى على ساحة القبائل الأخرى ، وربما أيضا قضا وقتهم فى الحديث عما يقصه التجار الذين سافروا إلى الشام أو اليمن عما شاهدوا فى هذه البلاد من عمران وازدهار تجارى . . أو مايسمعونه عن صولة الروم فى بلاد الشام وفلسطين ، وبدون ذلك فالحياة عندهم هادئة راكدة مملة . . كل يعمل فى تجارته البسيطة . . فى العطارة . . أو الجزارة . . أو بيع الملابس المستوردة من اليمن أو الشام .

وفى هذه البيئة البسيطة . . ولد محمد عليه الصلاة والسلام ومات والده عبدالله قبل ولادته ، . . وعندما ولد ارسل به جده عبدالمطلب إلى البادية ليرضع فى بنى سعد عند مرضعته حليلة السعدية .

وعندما عاد إلى مكة بعد عامين قضاها فى البادية ، وشب صحيح

البدن، عادت به حليلة إلى مكة ، وقد زاد ولعها وحبها لهذا الصغير الذى شعرت بالبركة تحل بها عندما احتضنته وراعتة ، وتعلق به اخوته فى الرضاعة (عبدالله والشيماء) .. عندما عادت به تمسكت ان يرجع معها مرة ثانية فقد أصبحت الحياة عند حليلة السعدية وزوجها الحارث بلا طعم بدون هذا الصغير اليتيم التى حلت بركته ديار بنى سعد .

لقد عادت بالطفل ليملك معهم ثلاث سنوات اخرى ، كان ينمو خلالها نموا سليما ، وكان فى سنه الصغيرة هذه يخرج مع أولاد حليلة لرعى الغنم .. و لاحظت حليلة السعدية ان محمدا دائم التأمل فى السماء .. و دائم التأمل فيما حوله من مشاهد الطبيعة .. كثير التفكير .. كثير الصمت .. وخشيت حليلة على الطفل الصغير فرددته إلى جده عبدالمطلب وأمه آمنة بنت وهب التى فرحت بطفلها فرحا شديدا .

وقررت آمنة ان تزور قبر زوجها فى يثرب وأخذت معها طفلها الصغير ، وجاريتها (بركة) . ولتنزل ضيفة عند أخوال عبدالمطلب من بنى النجار .. وفى طريق العودة مرضت آمنة بنت وهب ، ثم سرعان ما لفظت أنفاسها الأخيرة عند (الأيواء) !.. !

وشاهدها محمد قبيل رحيلها وهى تعاني المرض وتغالبه حرصا على الطفل الصغير ، وشاهدها عندما ماتت ، فلم يملك الا ان يبكى عليها اشد البكاء ، ويحزن عليها أشد الحزن ، وعادت به (بركة) إلى مكة ، حيث عوضه جده عبدالمطلب عما فقدته من حنان بفقد الأم .. ولكن هذا اليوم ظل محفورا فى قلب محمد . لم ينسى قط طوال حياته .. هذا اليوم الذى فقد فيه اعز الناس إلى قلبه ، حتى ورد عنه قوله بعد ذلك

- لقد ولدت والحزن رفيقى . !

مات والده .. ولم يره قط .. ولم يرسى بأمه سوى عشرين يوما كما يقول الرواة .

وماتت امه وهو فى السادسة من عمره .

وكان «عبدالله» و«آمنه» .. جاءا إلى هذه الحياة ، ليودعا محمد الحياة .. هذا الإنسان العظيم ، والنبي العظيم ، الذى سيوكل إليه ربه آخر رسالات السماء . ويموت عبدالمطلب ومحمد فى الثامنة من عمره . ويكفله عمه أبو طالب .. الذى أحب محمدا حبا جما ..

ورغم كثرة اولاد ابى طالب الا أنه كان يؤثر ابن اخيه عليهم ، فلا يستريح حتى يراه قد اخذ نصيبه من الطعام . لانه كان شديد الحياء ، وكان لا يمد يده إلى الطعام الا بعد ان يمد اولاد عمه ايديهم إلى الطعام .

وعمل محمد فى رعى الغنم .. غنم عمه أبى طالب وغنم بعض أهله .

وشاء الله أن يحفظ هذا الصبى الذى سيصبح آخر رسل الله ، فلم يعرف فى شبابه لهوا ولا عشا ، بل كان مثال الشاب الورع .. الذى يرعى حقوق الناس .. ويحترم الآخرين .. ولا يعتدى على أحد ، ولا يتناول احد بسوء .. حتى اللهو البرىء ابعده الله تعالى عنه .

وتروى كتب السيرة كيف أنه أقيم حفل عرس فى مكة .. كان فيه ضرب الدفوف وנגمات المزامير ، وحض أحدهم محمدا أن يذهب معه للاستماع بهذا الحفل ومايجرى فيه من لهو الشباب ، ولكن محمدا قبل أن يتأهب للذهاب كان يغط فى نوم عميق .. !

وقد تحدث الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك فيما بعد حين آلت اليه الرسالة بقوله (١) :

(١) الحديث رواه الإمام على وذكره ابن كثير .

- دخلت حتى أتيت أدنى دار من دور مكة ، فسمعت عزفا بالغرابتيل
(الدقوف) والمزامير .

فقلت : ما هذا ؟

قالوا : تزوج فلان فلانه

فجلست انظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس !

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئا .

ثم أخبرته بالذى رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر (الهو) ففعل .

فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة . فوالله
ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟

فقلت : لا شيء .

ثم أخبرته الخبر . . فوالله ما همت ولا عدت بعدها بشئ من ذلك حتى
أكرمنى الله عز وجل بنبوته .

وعندما بلغ محمد الثالثة عشر من عمره و اراد عمه أن يسافر إلى الشام ،
طلب منه ابن أخيه أن يسافر معه إلى الشام ، لم يستطع أبوطالب إلا الموافقة
. . وأثناء سفره مر على دير يتعبد فيه راهب اسمه (بحيرا) . . و اعترض
القافلته هذا الراهب . . الذى شاهد سحابة تظلل محمدا . . ويدور حوار
طويل بين الراهب أبوطالب . . يطلب فيه الراهب من عمه أن يعود بمحمد
إلى مكة . لأنه يخشى عليه من غدر اليهود !

وعاد أبوطالب بابن أخيه إلى مكة . . وقد لاحظ عليه عمه عزوفه وكراهيته
الشديدة للأصنام التي يمتلىء بها بيت الله الحرام .

وبلغ محمد مبلغ الشباب . . شاب يمتاز بالقوة والوسامة والخلق الكريم ،
حتى أطلقت عليه مكة لقب (الأمين) .

ولكنه فى نفس الوقت دائم التأمل . . دائم التفكير فى هذا الكون الذى
يعيش فيه . . يتأمل النجوم فى سماء مكة الصافية ويطيل الفكر فى هذه
الظاهرة ، وغيرها من ظواهر الكون . . الشروق والغروب . . السماء المتألقة
فى كبر السماء . هبوب الرياح . . النهار والليل . . تقلب فصول السنة . أنه
يريد أن يستشف ما وراء هذه الظواهر . . حتى شفت روحة وسمت . .
وارتقى حسه . . وعزف عن دنيا الناس . . فلا عرف السهر . . ولا عبد صنماً
من الأصنام . . بل كان يضيق بها ذرعاً . . كان الله يعده للرسالة الخاتمة .

(٢)

الأسرة المحمدية

«أنا خير الناس .. أبا وأما .. وأخا وأختا .. أبى الذى ريانى
محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأمى خديجة ،
وأخى القاسم ، وأختى فاطمة .. فمن لأحد نسب كهذا» .
هند بن أبى هالة

الأسرة المحمدية

بلغ محمد سن الشباب . . وهو يفيض حيوية وطهارة ونبلا . .

ليس هناك من لا يعرف فضلة في مكة كلها . .

وقد سمعت عنه خديجة . . سمعت عن نبيله وأمانته وطهارته فأرسلت إلى عمه أبي طالب ، حتى يتاجر محمد في مالها ، ويخرج مع القافلة المذهبة إلى الشام نظير أجر (أربعة من الأبل) ووافق أبوطالب . . ووافق محمد أن يذهب إلى الشام ويتاجر في مال هذه السيدة الجليلة ، التي لم تعرف عنها مكة سوى الطهر ، والسيرة الحسنة .

وذهب محمد إلى الشام ومعه غلام خديجة (ميسرة) وعاد من تجارته بالربح الوفير ، وماكادت تراه خديجة حتى أحست نحوه بعاطفة نبيلة جياشة ، وخاصة بعد ماسمعه من غلامها ميسره . . وحديثه الجذاب عن محمد وتواضعة وقدرته على البيع والشراء وأمانته .

وأهم من كل ذلك ما رآه من أمر هذه السحابة التي كانت تظله لتقيه من حرارة الشمس منذ غادر مكة إلى أن رجع من الشام !

أن هذا الشعور النبيل الذي أحست به خديجة لم يكن وليد عودته من الشام ، وتسليمه لها الأموال التي ربحها ، وحديثه عما اشتراه من الشام لتتاجر به في مكة ، بل أن هذا الشعور قد ملأ عليها حياتها منذ استدعته وطلبت منه أن يذهب ليتاجر بأموالها في الشام . . شعرت شعورا نبيلًا نحو هذا الشاب الممتلىء أمانه وأخلاصا ، حتى أنها خرجت إلى سطح منزلها عندما علمت

باقتراب مجيء القافلة القادمة من الشام إلى مكة حتى تراه ، وعندما رآته ،
أهتز وجدانها لعودته سالما .

ولقد أخذت خديجة تفكر فى أمر هذا الشاب الذى سال قلبها نحوه ،
واستدعت صديقتها (نفسه) ، وحدثتها عن مشاعرها تجاه محمد .

وما كان من نفيسة أن اقترحت عليها أن تتزوجه !

- كيف !

- دعى الأمر لى .

وتوجهت الصديقة إلى محمد ، حدثته فى أمور كثيرة ، ثم عرضت عليه
الزواج من خديجة . !

ووافق محمد على هذا الاختيار .

فخديجة سيدة مكة الثرية الجميلة . . وقد تقدم لها الكثيرون للزواج منها
فرفضت هذه العروض خشية أن يكون السبب وراء هذا الزواج الطمع فى
مالها . وكانت قد تزوجت قبل ذلك مرتين .

لقد شعر محمد بالارتياح لهذا العرض ، وخاصة أن خديجة أخبرت
صديقتها بانها لاتريد منه مهرا كبيرا لا يقدر عليه ، وعندما حدث عمه
أبوطالب فى ذلك ، شجعه على ذلك وأهداه عشرين ناقة لتكون مهرا له .

وذهب محمد مع عمه أبوطالب لطلب يد سيدة مكة ، وكانت تبلغ من
العمر أربعين عاما ، ويبلغ محمد من العمر خمسة وعشرين عاما .

وفى حفل الخطبة قال أبوطالب .

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، ونسل إسماعيل ، وجعل لنا بيتا
محجوبا ، وحرما آمنا وبعد :

فإن محمدا - ابن أخى - شاب لا يوزن به فتى من قريش إلا زاد عليه شرفا وخلقا وعقلا ، وأن كان قليل المال فالمال ظل زائل ، وله فى (خديجة بنت خويلد) رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وقد ساق محمد إليها (عشرين ناقة مهرا) .

وتم زواج محمد بخديجة سيدة نساء مكة . . لتبدأ حياة جديدة لهذه الأسرة الكريمة ، التى باركها الله رب العالمين وانتقل محمد ليعيش فى دار خديجة . . التى وفرت له كل ما يريده من استقرار ، وتركته لتأملاته وفكره الطويل . . فقد كان محمد دائم التأمل . . متواصل الفكر .

ولم تمض أشهر قليلة حتى حملت خديجة (بالقاسم) . وكم فرح محمد بابنه القادم ، وقد شعر بالأبوة ، كما سعدت به خديجة ، وعندما ولد القاسم مات بعد سنة وعدة شهور !

لقد رحل الابن العزيز الذى كان قررة عين لأبويه . . وأصبح الناس ينادونه (بأبى القاسم)

ورزق بعد عام من مولد القاسم بابنته زينب ، ولأن النبى كان شديد الحزن لفراق ولده القاسم ، فقد أهدت له زوجته خديجة غلامها (زيد بن حارثة) . . وزيد بن حارثة كان قد فقد أهله ، وبيع فى سوق عكاظ ، وأشترته السيدة خديجة ، ولما علم أهله بأن ابنهم عند السيدة خديجة ذهبوا إليه فى مكة ، وقد خيره محمد بن عبدالله بين أن يبقى معه أو يذهب مع أهله فاختر البقاء مع محمد لحبه الشديد له .

وأمام هذا الموقف ، أخذ محمد بن عبدالله زيدا وقومه إلى الكعبة وقال للناس :

«يامن حضر من قريش وسائر العرب ، أشهدكم أن زيدا ابنى يرثنى وارثه ، وانه حر أمره بيده » .

ولم يجد أهله أمام هذا الكرم المحمدى إلا أن يعودوا إلى ديارهم مؤقتين ان
ابنهم بين اناس يحبهم ويحبونه ، وانه عند محمد بمنزلة الابن فأطمأنت
قلوبهم إلى مستقبل زيد ومستقبله في ظل هذا الحنان النبيل المتمثل في محمد
بن عبدالله .

ثم رزقت خديجة بعد عام من مولد زينب (برقية) .. ثم انجبت (أم
كلثوم) .. وبعدها فاطمة .

وفي بيت خديجة عاشت هذه الأسرة السعيدة بالأب والأم .

الأب أحسن الناس على بناته وأكثرهم عطفًا عليهم وحنانًا بهم .

والأم سعيدة بزوجها وبناتها من محمد ، ومعهن يعيش ابنها (هند) من
أبى هاله .

وكان هند مازال طفلا .. تربى في بيئة بالغة الصلاح .. حتى أنه بعد أن
امتدت به الأيام كان يقول :

«أنا خير الناس أبا وأما وأخا وأختا .. أبى الذى ربانى محمد ﷺ
وأُمى خديجة، وأخى القاسم، وأختى فاطمة . فمن لأحد نسب كهذا» .

وضمت هذه الأسرة الكريمة أيضا جاريته (بركة) التى سهرت على رعاية
محمد بن عبدالله منذ فارقت أمه ، وانتقلت معه إلى حيث كان ينتقل . مع
جدة عبدالمطلب ، ثم عمه أبى طالب ، وأثر محمد بن عبدالله ان تعيش معه
في بيت خديجة .

كما ضمت هذه الأسرة أيضا (على بن أبى طالب) الذى أخذه ابن عمه
ليعيش معه ، لان عمه كان كثير العيال ، فأراد أن يرد اليه الجميل الذى
اسداه إليه عندما كفله صغيرا ، ودفع مهره (عشرين جملا) عندما اراد الزواج
من خديجة . !

أسرة مترابطة .. يربطها المحبة والفهم المتبادل ، والحرص على أن يشعر الجميع بالسعادة ..

فالسيدة خديجة سيدة بالغة الثراء .. بالغة الرحمة والشفقة على أولادها وذوى قرباها .. بالغة العقل والذكاء .

ومحمد بن عبدالله .. هو أبو القاسم صاحب العقل الراجح والرؤى المستنيرة . يملك قلبا ينبض حبا وحنانا لكل الناس ، فما بال أسرته ؟ أن حبه يتسع للجميع .. وأولاده قطعة منه .. فهو سعيد بهم ، وهم سعداء بهذا الأب الحانى الذى لا تخاطبة الناس إلا «بالأمين» أو «أبا القاسم» .

ويروى رواية السيرة هذه القصة: طرقت بابه ذات يوم بدوية تبدو على ملامحها البؤس ، وماكاد يسمع صوتها حتى قام إليها مسرعا يستقبلها فى حبور ، ويقبلها ، وعيناه مليئة بالدموع .. وخرجت إليها خديجة لتسمعه يقول لها : يأماء ! وعرفت أنها هى حليلة السعدية التى اخذته رضيعا فى بنى سعد !

وقال محمد لخديجة : ماذا ستفعلن حليلة ؟!

وكانت حليلة قد أصاب ديارها القحط ، بعد أن أمسكت السماء عن المطر ، فأصاب قومها هم ثقيل وأعطاهما عشرين شاه ، كما أعطتها خديجة ناقة تحملها إلى ديارها .

هذه هى أسرة محمد وخديجة وأولادهما ومن يلوذ ببيتها التى ترفرف عليه الهدوء والسلام والسكينة .

ومرت الأيام ..

وارادت مكة أن تعيد بناء الكعبة ..

وعندما تم البناء اختلفت القبائل حول من القبائل ينبغي له الفخر ، بأن يضع الحجر الأسود في مكانه ؟!

واشتد الخلاف بين الناس . . وكادت تندلع الحرب بين هذه القبائل . .
أرأيت السيوف . . وعلت الأصوات . . وبدأت نذر الحرب ، حتى اقترح
أحد عقلائهم أن يحتكموا لأول داخل إلى بيت الله الحرام ، وكان هذا الرجل
محمد بن عبدالله . . والذي استطاع بذكائه أن يحسم الأمر ، ويمنع سفك
الدماء . فقد اقترح أن يوضع الحجر الأسود في ثوب ويشترك في رفع الحجر
رجل من كل قبيلة ، و قام هو باخذ الحجر الأسود ووضع في مكانه . .
واستحسن الناس هذه الفكرة . . التي منعت اراقة الدماء . . وصارت هذه
القصة على كل لسان . . اشادة بذكاء محمد بن عبدالله .

(٢)

الرسالة الخالدة

«اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ
وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم»
قرآن كريم

الرسالة الخالدة

كان محمد كثير التأمل فى الكون . كثير الصمت . . وكان يتحدث فى الأيام ذوات العدد فى غار حراء . . ومن كثرة تأملاته . . شفت روحه ، واصبح مهيباً لتلقى الرسالة . . لقد كان كثير التأمل فى هذه الحياة . . وما وراء هذا الكون العجيب ؟

هل يمكن أن تكون هذه الاحجار الصماء التى لا تسفح ولا تضر ألهة يعبدها الناس ، ؟ وكيف لأصنام من صنع البشر ان تكون زلفى وقربى إلى الله ؟ وفى يوم لا ينسأ التاريخ . . ولم ينس الرسول الكريم . . وجاء جبريل بوحى السماء . . وكانت أول آيات القرآن الكريم .

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾ .

وعاد محمد عليه الصلاة والسلام إلى خديجة يرتجف خوفاً عما شاهد ، وموقف جبريل منه ، الذى علمه آيات من القرآن الكريم . وكان ذلك فى شهر رمضان . قال لهم عليه الصلاة والسلام

يشرونى دثرونى .

وأخذ النوم عندما رقد فى فراشه من شدة التعب .

وعندما استيقظ سأله خديجة عما حدث له ؟

قال لها الرسول الكريم :

- لقد رأيت ياخديجة ما أفرعنى ، وما جعلنى أهيم فى الصحراء خوفاً على نفسى من أن أكون شاعراً أو كاهناً أو مجنوناً ، ولا أكره أكثر من أكون أحد الثلاثة .

وأخبرها أنه رأى جبريل ، وأن جبريل أخبره أنه نبي هذه الأمة ، وأن الله أنزل عليه قرآنًا . وقال لها :

« رأيت شخصاً معلقاً بين السماء والأرض يقترب منى ويقول : أبشر يا محمد أنا جبريل ، و انت رسول الله إلى هذه الأمة » .

وحكى لها كيف ضمة ثلاث مرات وهو يقول له اقرأ .. فلما سأله : ماذا أقرأ ؟

قال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

قالت له خديجة :

أبشر يا بن عم ، وأثبت ، فوالله إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

وأصبح محمد بن عبد الله الرسول الذى كلف بتبليغ آخر رسالات السماء ..

لم يكن الأمر سهلاً ولا يسيراً .

انه من الصعب تغيير عادات الناس وتقاليدهم ومادرجوا عليه من أمور الحياة ، فكيف يمكن تغيير معتقداتهم ؟

كيف يمكن اقناع تلك العقول التى عششت فيها الأساطير والخرافات بهذا الدين الجديد ، بما فيه من قيم واستناره وحضارة !

كيف يمكن أن يطهر النفوس بماران عليها من عادات جاهلية ، وأفكار قبلية ، وتعصب عشائرى .

كيف يمكن أن يقنع الناس بضرورة الإيمان بالله واحد . . خلق الإنسان من طين ، ثم سواه فجعله بشرا ، وأن على هؤلاء البشر أن يتعاطفوا مع بعضهم البعض ، ويأزر بعضهم البعض . . ويأخذ القوى بيد الضعيف ، ويساعد الغنى الفقير ؟

كيف يحول هذا المجتمع المكي بعصبياته وأفكاره إلى مجتمع جديد ، يتدرج منه إلى كل القبائل العربية ، ثم يوحد كل هذه القبائل تحت لواء دولة واحدة ، ليكون ذلك نقطة انطلاق لانتشر نور الاسلام فى كل بقاع الدنيا ؟ الأمر بالغ الصعوبة .

صحيح أن الرسول وقد كلف بأعباء الرسالة لن يكون وحده . . وسيكون معه الخالق العظيم ، والمهيمن على كل الكائنات . . سيأزره بالوحي . . الذى سوف يتنزل عليه بالتوجيهات الربانية ، وتبليغ الرسالة وما فيها من عقائد وتشريعات وفضائل . . ولكن الرسول بشر . . وله طاقة . . ولن تدعه قريش يؤدي مهمته دون عوائق ، ودون ان تقف له بالمرصاد ، البعض سيحاربه حقدا وحسدا أن ترتفع بنى هاشم بهذه الرسالة فوق القبائل .

والبعض سيحاربه جهلا وبغضا فى الجديد .

والبعض الآخر سيحاربه لأن عقله قد طمسته غيباء العادات والافكار الجاهلية !

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام مثالا للتكامل الانسانى فى شخصيته وسلوكياته وفضائله ورباطة جأشة ، وLINE للناس ، وحسن معاشرة الجميع .

لقد ظل أعظم رسل الله يدعوا قومه سرا ثلاثة سنوات لم يؤمن بدعوته سوى ثلاثة عشر رجلا . . وكان أول من آمن بهذه الدعوة السيدة خديجة ، ومولاه زيد بن ثابت وعلى بن ابى طالب ، وصديقه أبو بكر الصديق والذى

قال عنه عليه الصلاة والسلام : «ما دعوت أحدا إلى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبى بكر» . .

وهذا الحديث الشريف يعنى ان ابا بكر لم يتردد فى الايمان بالدعوة الاسلامية بمجرد ان عرضها عليه الرسول الكريم وآمن بايمان ابى بكر عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن ابى وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وابوعبيده بن الجراح . .

كما استجاب للدعوة سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل ، وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وأم الفضل زوجة العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأبى سلمة بن عبدالله (المخزومى) والأرقم بن ابى الأرقم ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وأخيه عمرو .

كما آمن بالدعوة من الموالى والمستضعفين بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، وصهيب الرومى ، وخباب بن الأرت ، وعبدالله بن مسعود .

ولتعرف كم كان الامر صعبا على الرسول عليه الصلاة والسلام . . انه عندما أمر بالجهر بالدعوة ، ان صعد على الصفا وطلب من الناس ان يسمعوه نادى فيهم . يابنى مر ، يابنى عدى . . . وغير ذلك من بطون قريش ، وعندما اجتمع حوله الناس قال لهم :

«أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم ، اكنتم مصدقى» .

قالوا : نعم . ماجربنا عليك كذبا .

قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب .

- تبا لك . . الهذا جمعتنا ؟

فنزّل قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

وجمع الرسول الكريم أقاربه وقال لهم : الحمد لله ، أحمدته واستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه وأشهد أن لا آله إلا الله وحده لا شريك له .

أما بعد :

« فإن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذي لا اله الا هو أنى لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لأموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » .

وبدأت أنوار الرسالة ..

وبدأ رد الفعل العنيف من كفار مكة .

وبدأت مكة تعذب الضعفاء ممن اسلموا كبلال وياسر وزوجته سميه وابنيهما عمار بن ياسر . .

وكان أن أمر الرسول عندما اشتد أذى الكفار من يريد ان يهاجر من أتباعه إلى الحبشة فليهاجر .

وظل أعظم رسل السماء يبلغ رسالات ربه . . متحملا الأذى . . يسانده أصحابه ، وزوجته العظيمة خديجة ، وعمه أبو طالب .

وكان أعظم رسل السماء عندما يعود إلى منزله ، يجد الحنان من زوجته خديجة ، ومن أولاده الذين يلتفون حوله فى حنان : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

بنات فيهن من أبيهم كل الصفات والفضائل والنبل وفيهما من أمهن الحب والايثار وشجاعة القلب والعقل .

كانت زينب أكبر بنات الرسول . وقد تقدم للزواج منها ابو العاص بن الربيع وقد عرض الأمر على خالته خديجة فهو ابن اختها (هالة) . . وعرفت الام باحساسها ان العاص يحب زينب ، وأن زينب لا تمانع فى الزواج به ، فعرضت الأمر على محمد عليه الصلاة والسلام ووافق على زواج ابنته لما كان لابی العاص من رجوله وأمانه ومنزلة فى مكة ، وقد أهدتها امها ليلة زفافها (قلادة) قبل انتقالها إلى منزل الزوجية .

وقد أسلمت زينب ، بينما ظل ابو العاص على دين قومه . . كان يحب زوجته التى تبادلته نفس المشاعر النبيلة وظل وفيها لها .

ورغم عدم إسلامه الا انه لم يجر وراء ماتسوله له أهل مكة من ان يطلق زوجته ، فقد رفض ذلك . . ولم يتعرض للمسلمين بأذى . . بل أثر أن يعيش حياته بعيدا عما يجرى فى مكة من أحداث .

لقد فعل عكس ما فعله ابولهب ، عندما خطب رقية قبل النبوة إلى ابنه عتب ، وام كلثوم إلى ابنه عتيبة . . ولكن عندما دعا النبى إلى الرسالة الخاتمة أنكر عليه ابولهب ذلك ، وطلب من ابنه ترك رقية وام كلثوم .

وأسرع عثمان بن عفان إلى الرسول طالبا يد ابنته رقية وكانت رقية شديدة الشبه بامها خديجة . . وقد هاجرت مع عثمان إلى الحبشة ، ثم هاجرت معه بعد ذلك إلى المدينة ، وماتت عقب عودة المسلمين من غزوة (بدر) التى حققوا فيها انتصارهم الساحق على مشركى مكة . .

وقد تزوج عثمان رضى الله عنه بعد ذلك بأم كلثوم ابنة الرسول من اجل ذلك اطلق عليه ذو النورين

(٤)

احزان الرسول

« معلوم لكل ذي لب أن محمداً صلى الله عليه وسلم من
أعقل خلق الله تعالى. بل أعقلهم وأكملهم على الإطلاق في
نفس الأمر. »

ابن كثير

احزان الرسول

وتمضى الأيام . . .

ويأذن الله لرسوله وللمؤمنين بالهجرة إلى المدينة وفي المدينة يؤاخي الرسول بين الأنصار والمهاجرين ، ويعلن صحيفة هذه المدينة يؤمن فيها اليهود على دينهم وأموالهم . . كانت هذه الصحيفة بمثابة الدستور بين مختلف سكان المدينة يعيش الجميع فى ظلالها فى أمان على الا يخرج عليها أحد . . بأن يجير الأعداء أو يتحالف معهم . . او يساعدهم . . وأصبحت المدينة دولة يرأسها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى يديه أمور الدين والسياسة .

وقد وافق اليهود على هذه الصحيفة فى أول الأمر ، ثم سرعان ما تجاهلوا وغدروا بتعهداتهم . . واسلم (منهم عبدالله بن سلام) . وكان يقول لليهود:

- انه لرسول الله الذى بشرت به التوراة ، وانكم تعرفونه كما تعرفون ابناءكم .

واخذ اليهود فى المدينة يحاولون تعجيز النبی بأن يسألون أسئلة على أمل ان يعجز عن الاجابة ، فيعلنون عليه حرب التشكيك فيه وفى الدين الذى جاء به .

سألوه عن الساعة ؟

وسألوه عن الروح ؟

وسألوه عن ذى القرنين .رد عليهم الرسول بما جاء به وحى الله حول يوم القيامة .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الاعراف ١٨٧) .

ورد حول تساءلاتهم عن الروح بما انزل عليه من آيات القرآن الكريم .
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الاسراء

٨٥ .

وعن (ذى القرنين) قال قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَنَسْقُولُهُ مِنَ الْأَمْرِ نَاسِرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ (الكهف ٨٣ - ٩٠) .

وكان الرسول العظيم وهو في يثرب .. يدعو إلى الله .. ويقوم بين المسلمين يعظهم ويرشدهم إلى طريق الصواب ، ويواصل رسالته لمختلف القبائل .. لا ينسى ابنته زينب التي تعيش في مكة مع زوجها ..

وتتابعت الاحداث ، وفرض الجهاد على المسلمين ، وكان ذلك بداية الاحتكاك العسكري مع قريش ، ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ﴿ (الحج ٣٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴿البقرة ١٩١﴾ .

وكانت غزوة بدر الكبرى . حيث انتصر المسلمون انتصارا ساحقا على جيش مكة . . و حيث قتل أئمة الكفر من أمثال ابى جهل ، وأميه بن خلف .
وكان من بين الاسرى (أبو العاص بن الربيع) زوج زينب بنت الرسول .
وكان الرسول قد استشار أصحابه فى أمر الاسرى وكان من رأى أبى بكر الصديق :

«يا رسول الله ، قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم» .

وكان رأى عمر بن الخطاب .

«يا رسول الله : أخرجوك وكذبوك مر بهم فاضرب أعناقهم» .

وكان رأى عبدالله بن رواحه :

«يا رسول الله انظر واديا كثير الخطب ، فادخلهم فيه ، ثم اضربه عليهم نارا» !!

واستعرض الرسول هذه الاراء . . وقال لاصحابه : "إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون آكين من اللبّن .

وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة .

أنتم فقراء فلا يبقين أحد من الاسرى الا بضربة عتق او فداء

وإن مثلك يا (أبا بكر) مثل ابراهيم حين قال :

﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (ابراهيم ٣٦) .

وإن مثلك يا عمر مثل (نوح) حين قال :
﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ﴾ (نوح ٢٦) .

ونزل الوحي مؤيدا رأى ابن الخطاب :
﴿ مَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ
الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿
(الأنفال - ٦٧ - ٦٨) .

وها هو الرسول وقد طلب من الاسرى الفداء وعلمت زينب بأسر زوجها
فأرسلت تفديه بالقلادة التي اهدتها له امها خديجة عند زفافها . . وعرف
الرسول العظيم القلادة . . وانها هدية زوجته الراحلة العظيمة خديجة بنت
خويلد لابنتها . . وتداعت اليه الذكريات وسقطت من عينيه الدموع .

والتفت إلى اصحابه حزين القلب . . تملأ عينيه الدموع وقال لهم :

- بعثت إلى زينب بقلادة خديجة لتطلقوا لها زوجها فان رأيتم أن تطلقوا لها
اسيرها ، وتردوا عليها قلادتها فافعلوا .

ونظر الصحابة إلى الرسول وهو غارق فى حزنه . . فقالوا له : ونعم نطلق
لها صاحبها ، ونرد لها قلادتها .

وتوجه اعظم رسل السماء إلى زوج ابنته وهو يودعه فى طريق عودته إلى
مكة ، وطلب منه ان يرسل اليه بابنته زينب ، لانها لم تعد تحمل له ، فهي
مسلمة ، وهو مازال على دين قومه .

ورجع (ابوالعاص) إلى مكة . . وبئر بوعدة . . وطلب من زينب ان تذهب
إلى والدها فى المدينة .

وكان هذا الوفاء العظيم من النبي لزوجته وابنته سببا بعد ذلك ان يدخل

(ابوالعاص الإسلام) والعجيب أنه عندما عاد الرسول الكريم من غزوة بدر .. منتصرا .. ومحققا هذا الانطلاق العظيم للإسلام .. بينما هو سعيد بانتصار الاسلام .. بهذا النصر الحاسم على جيوش الظلم والظلام .. إذا به يعلم ان ابنته (رقية) زوجة عثمان بن عفان قد رحلت إلى جوار ربها الكريم .

كم تحمل أعظم رسل السماء بما يفوق طاقة البشر .

تحمل بطش مكة وسفالة مشركيها ..

أنه لم ينسى قط هذه الاسرة الكريمة .. أسرته المحمدية التي وقفت تآزره في أشد الظروف وأقساها .

زوجته الجليلة خديجة بنت خويلد .. التي ساندته في دعوته إلى الله ، وتحملت معه مشقة الحياة في العزلة التي فرضتها (مكة) على بنى هاشم عندما حاصروهم في شعب من شعاب مكة . وتحملت وهي السيدة الثرية المنعمة كل هذا العذاب .

وابنته فاطمة التي ولدت حينما أرادت قريش ان تعيد بناء الكعبة .. وكان الرسول الكريم في الخامسة والثلاثين من عمره عندما جاءت (فاطمة) احب ابناؤه إلى قلبه إلى الحياة .. فقد ولدت قبل المبعث بخمس سنوات . واحبها الرسول الكريم .. وراقب نموها .. وكان يربت في حنان على ظهرها .

وهاهي الايام تمر ..

وتأتى الرسالة الخالدة .

كانت فاطمة مازالت طفلة وهي ترى جهاد والدها العظيم بين اناس يحملون قلوبا أشد من الحجارة قسوة ، حتى أنهم لم يتورعوا أن يلقوا عليه القذورات وهو ساجد بين يدي ربه فى البيت الحرام ، وتأتى فاطمة الصغيرة لترفع هذه القذورات عن ظهر والدها بينما يتناهى إلى سمعها ضحكات المستهترين من زعماء قريش !

حتى أن الرسول الكريم عندما رفع رأسه من السجود ، بعد أن ازالته فاطمة عن والدها ما ألقاه الجاهلاء على والدهم . . رفع يده إلى السماء . . ودعا عليهم «اللهم عليك بقريش» . . قالها ثلاث .

وهاهو الرسول الكريم . . بعد عودته من «بدر» يفقد رقيه ، كما فقد أمها منذ سنوات في مكة . .

هذه الأم التي لم ينسها قط . . وكان يقول عنها كلما جاء ذكرها بعد هجرته إلى المدينة «لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس» .
وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس .

ورزقنى الله عز وجل منها الولد ، ولم يرزقنى من غيرها من النساء .
وها هو الرسول يتذكر كل مامر به من أحداث في مكة .

خديجة . . الوفية الراقدة تحت ثرى مكة وابنته رقية التي فقدتها منذ أيام .
وزينب ابنته الكبرى التي طلب من زوجها العاص ان تعود إلى أبيها في المدينة .
وبقيت من رائحة خديجة ابنته ام كلثوم التي تزوجها عثمان بن عفان وصفوه بناته فاطمة الزهراء .

ولم ينسى الرسول الكريم وهو يستعرض اسرى بدر ، ورأى النضر بن الحارث وعقبة بن ابي معيط . . ما فعلاه به .

الاول كان شاعرا متذعرا طالما هجا الإسلام والمسلمين وطالما ردد أن القرآن من أساطير الأولين ، ولذا أمر النبي بقتله .

أما الثانى وهو عقبة بن معيط ، طالما أفحش فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى أنه ذات يوم وضع رجله على عنق الرسول وهو قائم يصلى فى بيت الله الحرام حتى شعر الرسول ان عينية ستخرجان من مكانهما . ومرة أخرى رمى عليه القاذورات وهو ساجد ، وجاءت فاطمة بنت الرسول لترفعها عنه . . وهذا الرجل أيضا أمر الرسول بقتله .